دكتور سـيد حامد النساج

بطـاقـة تعـريف لشاعر مغربيّ شـاب!

تظل كل محاولة للتعرف على ملامح الحياة الادبية والفنية في المغرب الاقصى ، محفوفة بكثير من جوانب القصور ، ولا يمكن ان ينظر اليها الا في اطار كونها قراءة في بطاقة تعريف محدودة الهـدف ، محدودة المعلومات ، بشكل لا يتيح لقارئها ان يستكشف الاعماق ، ويستبطن ما وراء الظواهر ، ويدرك الابعاد الحقيقية وراء تلك البيانات

ونحن في المشرق اكثر ما نكون حاجة الى مثل هذه البطاقـات التي يجهلها اكثرنا : ادباء ونقاد وفنانين وقراء . وبعدها طبعا ، وليس قبلها ابدا ، يصبح لزاما على من قام بدور التعريف : ان يعمل فكره النقدي ، وقلمه التحليلي ، مستندا الى رؤية واعية لامكانيات مـن تصدى لهم ، واحاطه تامة بملابسات انتاجهم ، عم يكون قد اطمـأن الى ان قارءه ـ في المشرق ـ مهيأ فكريا وثقافيا ، لتقبل وجهات نظر مختلفة ، وآراء متباينة ، حول ادباء وانتاج له بهم وبه درايـة ، ولديه عنهم وعنه سابق معرفة . وهنا يكون النقد والتحليل والحكم منطقيا ومقبولا . اما حين يبدأ الناقد باستعراض عضلاته النقدية ، وفرش تعقيداته المستوردة ، وحشر معلوماته المترجمة ، مطبقة علـى انتاج وانباء يحتاج القاريء اولا الى ان يسمع بهم ، ويفهم ظروفهم ، بل وان يحدد موطنهم الجغرافي ، فان المسالة ـ عندئذ ـ تصبح في حاجة الى اعادة نظر . اذ الامر هنا مختلـف تمامـا عن تناولنـا النقدي لامثال طه حسين او الحكيم او نجيب محفوظ او يوسف ادريس او غيرهم ممن لم يعد القاريء العربي معهم يشعر بانه مشتاق الـى مزيد من الدراسات حولهم .

كذلك فان اختيار ادباء بيئة لم يعايشها الكاتب معايشة كاملـة من شانه ان يؤكد ما سبق . وهو امر طبيعي بالنسبة لانسان يعيش بعيدا عن المغرب ، مما قد لا يتيح له فرصة الاتصال بالكتاب ، ودقة المتابعة ، وسهولة تجميع الانتاج او حتى الاطلاع عليه كله : ان في المكتبات العامة او في دور الصحف ، او في بيوت اصحابه ، او جيوبهم الخاصة ، نظرا لما تتعرض له منازل البعض من تهجم وتفتيش ، فضلا عن معرفة الاتجاهات الحقيقية للكتاب ، وادراك ابعادهم الاجتماعيـة والنفسية والفكرية والعقدية .

يضاف الى هذا ان الادب المغربي المعاصر يمر بظروف جد صعبة : سياسيا واجتماعيا ونضاليا ، جعلت الادباء يعانون الوانا مـن العذاب ، بعضها فكري ، وبعضها نفسي حـاد ، واخطرها جسدي ، وكلها نتاج اوضاع لها خطورتها وحساسـيتها في الوقـت الراهن . وهي تنعكس بالضرورة على كتاباتهم غير المعلنة . فان لهم كتابات لـم ينشروها ولم يذيعوها ، وانما يخبئونها ويختزنونهـا في ادمغتهـم هـم وحدهـم .

ازاء هذه الملابسات وتلك الاوضاع تبقى كل محاولة ممائلة لتجربتنا هذه لا تعدو كونها اطلالة من بعيد على مشارف ادب يناضل فـي ارضه ، ويلعب دورا في حياة شعبه ، ويعايش قضاياه ، ويصور الامه ويجسد مشاكله ، ويستشرف الطريق القويم لمستقبله .

والشاعر الشاب الذي نريد ان نقدمه الى القراء هو «محمد بنيس» الذي اصدر ثلاثة دواوين حتى الان ، اولها : « ما قبل الكـلام » ١٩٦٩ ، وثانيها « شيء عن الاضطهاد والفرح » ١٩٧٢ ، وثالثهـا « وجه متوهج عبر امتداد الزمن » ١٩٧٤ . الى جانب قصائد متنوعة نشرتها له بعض المجلات العربية . ثم اخيرا اصدر مجلة جديدة تحمل رؤية الشباب المغربي المثقف الجديد ، ومحاولته الجاهدة في التعبير عن نفسه ، ومشاكل مجتمعه ، ووجوده ، وحركته ، من خلال تصوير « الثقافة الجديدة » تمييزا لهـا عـن غيرها من المجلات الرسمية التقليدية . (١) بالاضافة الى انه يعد اطروحته للحصول على درجة الماجستير في موضوع : « التجربة الشعرية المعاصرة في المغرب ـ من البدايات الى الامتداد » .

ولا يقف « محمد بنيس » وحده ـ كشاعر ـ يبذل الجهد في محاولة تعرية واقع بلاده ، وتحديد معطياته في مختلف الميادين والاتجاهات ، وانما يعتبر جزءا من كل ، وواحدا من جماعة كبرى ، ضمت وتضم : مصطفى المعداوي الذي توفي وهو في الرابعة والعشرين من عمره ، بعد ان قدم في ميدان الشعر والنضال نموذجا يعتبر ـ في نظرنـا ـ التجربة الرائدة في هذين الميدانين. والفرقاني محمد الحبيب . ومحمد بن دفعة . واحمد المجاطي . واحمد صبري . واحمد المعداوي . احمد

---

(١) مجلة فكرية ابداعية . مجلة كل المثقفين التقدميين المغاربة. من اجل المساهمة في خلق فكر مستقبلي دافع للتاريخ نحو الامام .. تتجه نحو البحث الجماعي عن الحقيقة .. وتعتمد المنهج العلمي .. منطلقة من واقع ثقافي مأزوم .

ابن ميمون . عبدالكريم الطبال . مفدى احمد.حسن الطرينق .هناوي احمد . محمد لشعرة . غيبة الحمري . نالمليانى ادريس . الطيب الرياحي . محمد القماص . محمد بن طلحة . عبدالله راجع .حسن الغرفي . عبدالعلي الودغيري . بنيحي عبداللطيف . احمد الجوماري. ابراهيم السولامي . بشالم الدمناتي . محمد السرغيتي . ابراهيم الهلالي .محمد البحتوري .عبداللطيف زروال . محمد الخمار الكنوني مالكة العاصمي . رشيد العبيدي . ومجموعة الشعراء الذين يكتبون بالفرنسية لدبا يتسم بالثورية المنبثقة من شعورهم وتعبيرهم عن سخطهم وانفجار عواطفهم ، امثال الطاهر بن جلون ، وعبداللطيف اللعبي والنسابوري ! ولعل كثرة عدد الشعراء في المغرب ترجع الى ادراك الشباب بخطورة الدور الذي يمكن ان تلعبه القصيدة الحديثة في التعبير عن الواقع المعاش ، اذ تعد بذلك المنظار الاكبر شفافية الذي يستطيع المرء ان يرى من خلاله جذور الواقع المتحرك للمجتمع المغربي في مستوياته لمختلفة . ومن ثم تستكشف المعطيات الدقيقة للواقع النفسي والاجتماعي والسياسي والفكري للانسان المغربي ! ويجب الا ننسى ان المغاربة يطربون للموسيقى والانشاد . وولعهم بالموشحات الاندلسية والمغربية قديم . كذلك فان الصراع ضد القوى المؤيدة للتنفرنس ، كان يستدعي ان تكون اسلحة لمعربين قوية صارمة . ولقد كان الشعر العربي هو هذا السيف المصلت في وجههم . ثم ان المعربين كانوا يتهمون المتفرنسين بانهم يتمسكون بلغة وحضارة لا علاقة لها باللغة والحضارة العربيتين . بينما الشعر العربي يستند الى تراث شعري لصيل ، والى بيئة عربية وحضار ةعربية كانت لها سطوتها وامتداداتها القوية . وثمة سبب آخر ، ينبع من كون العلماء المغاربة والفقهاء وائمة المساجد ، لهم تأثيرهم اليومي على عامة الشعب ومتوسطي لثقافة ، وهؤلاء لا يخلو حديثهم من « الشعر » الوعظي الحكمي الارشادي . وهو ما يجعل الاذهان مهيأة دائما لسماع الشعر وقراءته . ولا يخفى ان الشعر يقرأ بسرعة ، ولا يستغرق وقتا ان اذيع بواسطة المذياع . كما ان القصيدة تعبير عن شعور مركز مكثف ، موجه الى القلب ليحدث تأثيرا مركزا وسريعا ، ومن ثم تكون الاستجابة الفورية .

ولا يحتاج الشاعر الشاب « محمد بنيس » الى لف ودوران ، كي يصوغ فكرته ، وليقول كلمته ، وليعلن موقفه من خلال بعض القصائد التي تؤكد شهادته التاريخية از ء واقع فاسد ومناخ مسموم . وقد ضحى من اجل هذه الشهادة التاريخية بالكثير من خصائص الفن الشعري . فقد وضع الهدف نصب عينيه : ان يفضح المساوىء ، ويعري الاوضاع ، ويكشف الزيف ، وان يسجل بهدوء مراحل التعذيب النفسي والبشري المسلط على الانسان المغربي ، منذ ان تكشفت له مظاهر الزيف والخداع التي تغلف واقع الحياة المزري الذي تميزت به فترة ما بعد الاستقلال . الواجهة . ان الامال العريضة التي كانت تختلج في نفوس الجماهير المغربية سرعان ما بدأت تتهاوى واحدا بعد الاخر ، بفعل ما حفلت به سنوات ما بعد الاستقلال من خيبة امل اخذت تطبع ، يوما بعد يوم ، كل مجالات الحياة المغربية اليومية للجماهير العريضة . وهكذا وجدت هذه الاخيرة نفسها تبتعد شيئا فشيئا عن المضمون الحقيقي للاستقلال الذي ناضلت من اجله ، فداء منها للحرية والسيادة ، وصونا للكرامة المغربية .

وبعدما تداعى حلم الديمقراطية السياسية والاجتماعية ، صودرت الحريات ، وفرضت رقابة صارمة على كل انواع التعبير ، وابعد المثلون الحقيقيون للشعب عن ساحة الممارسة اليومية في حظيرة الدولة ، وتبعا لذلك ابعدت قضايا الجماهير لاساسية المتعلقة باحوالها الخاصة والعامة ، لتحل محلها قضايا ثانوية ، تتسم بطابع المصلحة الفردية . بمعنى ان الاستقلال اصبح ، في نظر الجماهير ، اسما بدون مسمى ، واطارا فارغا من اي محتوى ايجابي من شأنه ان يوازي نضال لجماهير صانعة الاستقلال . وكان انعكاس ذلك على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي اسوأ بكثير مما قد يتبادر الى الذهن

وقد اراد الشاعر الشاب محمد بنيس ان يكشف عن هذا الواقع المنهار الذي يقود الى لسقوط الحتمي . وان يركز تسليط اضوائه على بعد جديد في حياة الشعب المعاصرة ، يتمثل في محاصرة الافراد . وفي الرقابة المشددة على المثقفين . وفي مصادرة الاحلام والتطلعات والافكار . وكنتيجة للاحساس لحاد بثقل التبعة وعبء المسئولية ، لم يتخلف محمد بنيس عن تقديم شهادته ، كوثيقة ادانة ضد القمع الذي يتضخم يوميا في اطار سياسي لا ديمقراطي .

لا اكتب شعرا او نثرا
« لا اكتب ما يبقى محفوظا في المتحف
يكفيني ان يرميني منفجر

مثلي
في الساحة

مثلي
في لواحة

وليسمح لي نقاد الشعر
وهواة النثر
يكفيني اليوم

عشاق الجنة والنار
والفرح المسفوح على شباك الدار
هذا تقرير عام
او منشور خاص بالمطرودين
من قاعات التكبير
والتصغير
من حمى الجبناء » (1)

ومما يحمد لهذا الشاعر لشاب انه اتخذ موقفا جادا وجريئا من شعره الذي كان قد كتبه في بداية حياته الفنية ، وبالذات في ديوانه « ما قبل الكلام » ، معلنا رفضه لما فيه ، وكأنه لم يعد يناسب المرحلة التي يمر بها المغرب ، والتي تحتاج الى الشاعر الثوري الواقعي ، لصادق البسيط ، لا الشاعر الفانتازي ، او الانتهازي ، او الرومانسي . فكتب في صحيفة (العلم) مقالا بعنوان :

« طلقت ما كتبت ! » . وقد فطن الى ان الشعر لا يتغذى من الذاتية الحرة المفرطة ، اذا لريد ان يكون ناجحا ، كما يقول جورج لوكاتش . اذ ان نقطة انطلاقه هي الحياة نفسها . وان موجودات الواقع في اي مجتمع وفي اي عصر ، كانت وما تزال تشكل لمادة الخام والينبوع الثر ، الذي يستقي منه كل فنان مادته الفنية والفكرية اللازمة . لذا فان نجاح الفنان محكوم بمدى قدرته على وعي واستيعاب كل ما يفرزه الواقع لانساني خلال تفاعلاته الدائبة والمستمرة ، وبالتالي قدرته على التعبير عن معطيات ذلك الواقع تعبيرا فنيا صادقا ، تتحقق معه لحظة الانعكاس المطلوبة في كل عمل فني اصيل ، يبتعد عن كل ابتذال او تشويه .

ويزداد تقديرنا لموقف هذا الشاب اذا عرفنا ان ديوانه الاول صدر ١٩٦٩ ، وانه طلقه في اغسطس ١٩٧٢ ، واضعين في اعتبارنا انه شاب لم تأخذه العزة بالنفس والتضخيم من الذات الى طريق

---

(1) من مقدمته للعدد الاول من مجلة « الثقافة الجديدة » ـ خريف ١٩٧٤ .

برفض فيه « المواجد » و « المنازل » و « الفعل » ، وأيما الذي حدث كان على العكس تماما : تحمل مسئوليته من نفسه بنفسه ، لانه التزم التزاما واقعيا بقضايا شعبه . فوقف من شعره ومن نفسه هذا الموقف الذي يذكرنا بموقف مماثل في الصين الشعبية يوم ١٤ ابريل ١٩٦٦ ، مع بداية الثورة الثقافية الكبرى هناك ، حين صرح كاتب الصين الاول ورئيس اكاديمية العلوم الطبيعية (كيومو ـ جو) بان جميع ما كتبه جدير بان تلتهمه النيران . ولئن دل هذا على شيء فانما يدل على ان شاعرنا الشاب قد ازداد وعيا بواقعه ، وادراكا للتناقضات المدمرة في كل جوانبه ، وتحديدا لموقفه هو من هذا الواقع ، ومن الفن ، ومن الانسان المغربي . بل انه غدا اكثر وضوحا في ابراز دوره واعلانه دون مواربة . فقد عرف طريقه ، واصبح عليه ان يعرف الاخرين مثل الذي عرف . وان يوسع من افاق الرؤية امامهم ، وان يحدد لهم معالم مستقبلهم ، والوسيلة الى تحقيق هذا الغد .

ويصرح محمد بنيس بأن الثقافة المغربية المعاصرة ، فكرا وابداعا ، تعيش في أزمة ، خلقتها هي بنفسها كنتيجة طبيعية لانفصالها عن الواقع . فهي لا تنطلق منه ، ولا تتفاعل معه . ومن ثم غدت ثقافة شقية بوعيها الزائف ، تدور حول نفسها وتجتر انهزاميتها وشقاوتها ، مما دفعها الى ان تقف ضد سير التاريخ واندفاعه المتتالي نحو تحرره المشرق . (وكل عمل لا يحبل بالمستقبل يبقى مقطوع الاطراف ، يعيش الوهم ولا يتجاوزه ، يتواطأ ولا يغير ، يتذكر ولا يحلم) (١) اذ المطلوب من الثقافة في المغرب المعاصر ان تعمل جاهدة على تغيير الانسان المغربي وخلقه من جديد ليدخل حدود انسانيته المغتالة .

ومن خلال ربطه الماضي بالحاضر ، نراه يستشرف للمستقبل . وبدراسته الواقع المعاصر ، يتبين القوى صاحبة المصلحة في التغيير ، وتلك التي تسعى الى ان تعود بالمجتمع الى الوراء . وكنتاج لادراكه الظواهر ككل متكامل ونظرته اليها في شمولية لا تقبل التجزئة ، جاء وعيه بالدور الذي ينبغي ان يلعبه الشعراء والفنانون ، وكذا موقفه من الاداب والفكر والفن السابق ، وكان انكاره لما ابدعه هو . ونحن نتنبأ له مستقبلا فنيا لا بأس به ، ان سار على نفس الدرب الذي اختاره هو ، وان جهد من اجل تطوير فنه ، وتثقيف نفسه ، والمشاركة الايجابية الفعالة مع بقية القوى المناضلة في مجتمعه . وفيما يبدو انه قد اختار جانب الانحياز للقوى الجديدة الثائرة ، التي تستهدف التغيير الجذري الشامل .

قد يدل على هذا من بعض الوجوه ، قصيدة (معلقات الرفض والفجع) التي يهديها : « الى الصديق عبداللطيف اللعبي » ، وهي مؤرخة ٢٥-١٢-١٩٧١ . وكان اللعبي في السجن آنذاك . وذلك هو قدر الانسان الذي جعل الكلمة النقية الشريفة هدفه في الحياة . انه قدر محدد منذ البداية : فاما السجن واما الموت . واذا كان من الثوار ، فانه يسعى الى ذلك بنفسه ، لانه لا يتوانى لحظة عن ان يجعل الثورة الدموية في كل مكان : على الجدران ، وفي محاكم التفتيش ، وفي شرف المنازل ، وفي كل صقع وركن وزاوية وشق . ويبدو لي ان شاعرنا متأثر الى حد كبير بعبداللطيف اللعبي ، مناضلا وثائرا وفنانا . وتبلغ قصيدته هذه ستة عشر مقطعا مطولا ، لم تتبلور فيها التجربة الشعرية بعد . ويلاحظ انه قد تسربت اليها ملامح نزارية وبياتية وسيابية . وان حظيت بالوضوح والبساطة والسهولة .

(١) في مقدمته للعدد الاول من مجلة « الثقافة الجديدة » ـ خريف ١٩٧٤ .

وهو يبدأها في المقطع الاول على هذا النحو :

فررت في بداية الصباح
وفي بداية الخريف
وفي بداية الربيع والشتاء
وفي بداية الحياة
قررت ان اكتب في مشنقتي وصية بسيطة
قصيدة
او صرخة من الدماء والصدى
تنشدها معي السجون
في لحظة او لحظتين
ثم اموت
فوق جزيرتي البعيدة القريبة (١)

وهو يربط بين هذا القدر ، وبين هدفه من فنه وشعره وبين الثورة الدموية كأداة ضرورية وحتمية لتحقيق الغايات والاهداف بالنسبة للمجتمع كله ، وعلى قمته الفلاحون والعمال وابناؤهم من المثقفين الثوريين الذين يرتبطون ارتباطا عضويا بمشاكل هذه الطبقات المغلوبة والمطحونة اجتماعيا واقتصاديا ، والمقهورة سياسيا وديمقراطيا ! ونراه في المقطعين الرابع والخامس ينادي معشوقته الحمراء ، التي يريد لاعلامها ان ترفرف ، بدلا من ان ترفرف أجنحة الظلم وعلامات الاضطهاد وتجاعيد الغضب على كل بيت ومبنى وشارع ، لا سبب يدعو الى الانتظار في نظره . فالغيث الراحل لا ينتظر ان يرحم شعبا مظلوما ، او يحمي امة من زمن الموت الموشوم . والجماهير لم تعد تأخذها سنة النسيان او تخيفها مشنقة الانسان الحاكم ، ففي صمتهم الممتد خيوط غاضبة ، وابصار حافدة تتسلق اسوار النار ، حتى اصبح ملايين التعساء على الارض المغربية لا يحلمون الا احلاما حمراء .

حمراء
يا ايتها الخفاقة في اعراسي
ايتها المنشورة فوق حدودي
يا حلمي
حمراء
تنمو في صمت الانواء الفقراء
تتوهج عبر اغاني الفلاحين
وشعارات العمال
اياما آتية
عذراء (٢)

ثم ينتقل الشاعر في المقطع السادس الى الحديث عن المناضلين النموذجيين الذين يربطون بين عقيدتهم وبين عملهم ، بين النظرية والتطبيق ، الفكر والواقع ، اولئك الذين ينضم اليهم امثال عبد اللطيف اللعبي الذي اهديت اليه القصيدة . ونرى الشاعر واقعيا الى ابعد الحدود ، يصور حركتهم وتجمعهم وخططهم ، وتضحيتهم من اجل الغير ، وكأنما يريد ان يضرب للناس المثل بهم ، كنموذج يجب ان يحتذى في هذه الفترة بالغة الحساسية ، والتي تتطلب من كل ابن مخلص للمغرب ان يفعل ما يفعلون ، وان يضحي بمثل ما يضحون .

(١) ديوان « شيء عن الاضطهاد والفرح » ـ مطبعة النهضة ـ فاس ١٩٧٢ ـ ص ١٢٩ .

(٢) نفس الديوان ص ١٣٣ .

انهم يؤمنون بالمستقبل . يرفضون كل المواصفات القائمة . يريدون ان يخلقوا ويبدعوا من الثورة اغنية نضالية ، وممارسة حقيقية فعلية ، للنساء والاطفال والرجال والشيوخ والشباب قبلهم . ان يعلموهـــا الفلاحين والعمال والعبيد والجياع والتعساء والمحرومين والاشقياء ، لانها مخلصهم الاوحد من السادة الحاكمين والمالكين والمستبدين .

ومع الالتحام الكلي بالجموع المطحونة ، ومع الالتزام بقضاياها ، والارتباط بقادتها ، يصبح على الانسان ان يحمل في يده كفنه ، مـا دام قد ارتضى السير مع الذيـن يعبرون سلما مـن الـورود والاشواك ، يمشون امام الليل عراة ، وامام الصبح حفاة . يمشون في صمت ، مأخوذين بغد الانسان وخاتمة القهر . يمشون مـن نهـر الموتى حتى انهار الاحياء ، يعلمون الناس الجهر الممنوع ، وجنـون الرفض ، ليجعلوا من السجون والاعدام محطـة ينسف نصف عمرها مع العبور ، ونصفه مع الوصول ، وليربطوا بين المعلـوم وبـين المجهول . كل منهم يرتضي لنفسه ان يخرج من بيته القديم مـع الصغار الفقراء ، يصحبهم الى الحقول او المعامل او الشوارع ، يشق بهم قبر المجهول ، وينفض كفنه ، ثم يعود !

ولنا ان نتوقع سيطرة الدعوة الى « الرفض » علـى شـعر شاعرنا الشاب . فحين تجتمع الكلمة الثائرة والشباب الهادر فـي مزيج واحد مركب علينا ان ننتظر حـدة الصدام والرفض التام لكل شيء تعلمه من اهلـه واقاربه ، او تلقنه مـن المدرسة والاذاعـة والجامعة والصحافة . وهو رفض مستند الى اساس موضوعي ، والى دراسة الواقع ، مما جعله يؤمن بالرفض وسيلة اولى مـن اجـل التغيير . وايمانه بـه يدفعه الى ان يحض الاخرين عليه . والى ان يصرخ فيهم باستمرار كي يتنبهوا الى المؤامرات التي تحاك باسمهم ، والحفلات التي تقام على اشلائهم ، والذئاب التي تنهش عظامهـم ، والوسائل الدنيئة التي تمتص بها دماؤهم وعرقهم .

نرفض
يـا مقتسـم الحفـلات
فـي حضرتنـا
فـي غيبتنـا
ان تسرق منا حب المحرومـين
علـم التغيير
نـرفض
مـن بـاع زمانـا فرحتنـا
اهدانـا لعبة اطفـال
ومضـى

يتربع فوق السيف وفوق الاوراق الصفراء
ويحاكم حلم المرتـدين
نرفضـ
هـذا زمن الرفض المنشـور
فـي مزبلـة المـوتى
هـذا صحـو المعدوم
خلـف الخطب الجوفاء
نرفضـ
ان تـولد باسـم الكادح

غـرف الاسـرار
وصكـوك التوبة والغفران
فـي فانحـة الانـوار
نرفضـ

هل تعلم انا نرفض . بيعتك الاولى
ونبارك بيعتنـا
للقـادم مـن قلب الشارع
نرفضـ
نرفضـ
نرفضـ » (١)

المفروض : سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا ، مرفوض . والشاعر لا يخشى الافصاح عـن رفضه . كما لا يخاف مـن اعـلان بيعته الحقيقية لذلك المناضل المنتظر ، الذي يفرزه الشارع المغربي ، وتصوغه الجماهير ، وتلده ازمة وحواري المشاكل اليومية . لقد تعلـم الشاعر من الكادحين ومن القوى الشعبية الفاعلة . ومـن ثـم فان ايمانه بهم لا يقف عند حد . فهم انبيـاء المسـتقبل . والرواة الصادقون . والاصدقاء المخلصون . وهؤلاء لـم يبايعـوا احدا بعد . لم يختاروا الحاكم المتربع على العرش ، فوق السيف وفـوق الاوراق الصفراء . والشاعر من بداية البداية يمحو كل ـ الذي حفظه مـن الاخبار الكاذبة في موسم الطفولة وموسم الكهولة . انـه لا يجـب ان يروي فقط الا عـن احبائه الفقراء . وفيما يبدو ، فان حبه هنا ليس حبا رومانسيا ، ولكنه حب مصحوب بالتعقل والتدبر والتخطيط للثورة حب انبتته وحدة التناقضات ووحدة المعاناة ووحدة الاحساس بمرارة الواقع المنعفن . وللحب هنا هدف محدد هـو ضرورة القضاء دمويـا على الاسباب والمتسببين في سرقة حب المحرومين ، وفي بيـع الفرحـة لازمان وازمـان .

ولما كان الشاعر يؤمن بان التغيير الجذري من اجل المحرومـين لا يكون الا بالثورة الشـاملة ، فانه في شعره اتخذ موقفا جادا وحـادا من السلطة ، لانها هي التي اودت بالمجتمع الى ما هو فيه ودفعت بـه الى الهاوية . هي صاحبة الفضل الاعظم في خلق الطبقة ، وفي تركيـز الثروة التجارية والزراعية والمالية في ايدي قلة تخدمها ، وفي اخـلاء السبيل امام القواعد الاجنبية ، وفي اتاحة كل الفرص لرأس المـال الاجنبي ، وفي صنع التخلف المادي والتدهور الفكري والاضمحـلال الثقافي ، وفي شنق الحريات ، وخنق الاصوات ، ومصادرة الاحـلام الشـابة .

وفي نهاية هذه القصيدة الطويلة ، تتجسد قمة المواجهـة بـين الشاعر الشاب ، صاحب الكلمة الفوارة ، وبين السلطة المقيمـة استاذة القمع والاضطهاد . وهي قضية الكاتب الجديد في العـالم المتخلف ، حيث لا يواجه مشكلة الكاتب والسلطة التي هـي مـن الملاحم التاريخية في حياة الانسان ، وانما يواجه معها مشكلة كـونه شابا يعاني مرحلة التفجر العنيف . ومحمد بنيس لا يأسف اذا القيت جثته على الطريق ، مرفوعة ، عارية ، يمزقها الرصاص ، لانه مستعد لذلك متأهب للخطة ، مادام قد اختار طريقه وسط الجموع ، ولانـه

رفض ان يكـون صوته المتميز الخلاق بوقا للحاكم ، مصفقـا مطبلا مهللا مكبرا . عندئذ ايضا تتخذ السلطة وسائل غير انسانية لكتـم الاصوات الجديدة . ابسطها اعمال التجسس ، ومنعهم حتى مـن التنفس والحركة الطبيعية المشروعة .

عزيـزتي
تمنعنـا السلطة هـذه الايام
مـن الصراخ والغضب

---

(١) ديوان : « شيء عن الاضطهاد والفرح » ـ ص١٣٩ .

ومن اعلان الاحتجاج
تريد منا مقمرين
ومخمرين
او قاتلين مجرمين
لاننا عزيزتي
نقذف من صرختنا
احتجاجنا
معالم التفجير
تنفذ من وجه لوجه
ومن لسان للسان
لاننا نرهبهم
بحبنا وحلمنا
نرسم في حضرتهم
بقطع الفحم والجير
مدينة لنهاية (1)

واحساسا من شاعرنا الشاب بوجود « الآخر » في الحياة المغربية وبخاصة بعد احداث الصخيرات ، ثم اضطرابات وقلاقل فبراير ومارس ١٩٧٢ ، كتب قصيدته « الى الواقفين وراء الباب » في ١٥-٧-١٩٧٢ ونشرتها له صحيفة « لعلم الثقافي » في ٤-٨-١٩٧٢ وهي قصيدة لا يمكن ان يغفل قراءتها اي متصفح للصحف اليومية والاسبوعية في مغرب ١٩٧٢ ، الذي كان يمور ويغور باحداث متتابعات . وقد كتب محمد بنيس قصيدته هذه بعد ان تبلورت باحداث للحياة المغربية بصفة عامة ، وبعد ان آثر ان يكون واحدا في الكل ، موجة في التيار ، نقطة صغيرة في بحر هادر ! وبنفس البساطة التي لمسناها في قصيدته السابقة ، تتسم هذه القصيدة . وهي في الحقيقة ـ وان عبرت عن احساس صادق وواقع كائن وموجود : ـ متاثرة بقصيدة نزار قباني « هوامش على دفتر النكسة » ، وبالذات في المقطع الذي يتناول فيه وسائل السلطان في حرمان الناس حرياتهم الشخصية ، ومراقبتهم ، وتتبعهم لحظة بلحظة ، ومعرفة اخبارهم بطرق التجسس والمطاردة . واذا كان نزار قباني قد صور ذلك ضمن قصيدة ، فان محمد بنيس يصوره في قصيدة طويلة كاملة . ولا يمنع ان يكون مثل هذا التاثر والتاثير ، خاصة وان الشاعرين يتعرضان لظاهرة متفشية في العالم المتخلف ، وهي في المغرب اشد قسوة وتطرفا . فكان لزاما على الشعراء الشباب ان يسجلوا احساسهم نحوها ، على اعتبار انهم اول من يتعرض لذلك قبل الناس العاديين .

ويصور لنا الشاعر موقفه من حراس السلطة وعيون الحاكم ، وببساطة ووضوح يتتبعهم ويذيع اسرارهم على عامة الشعب . كيف يقفون وراء لباب بالساعات ، او خلف مفارق الطرق بالسيارة ، او في الازقة المعتادة يلقون في وجهه كمائن الفزع ، ثم يختفون واحدا فواحدا بعد مرور فترة الحراسة . وعندما يزوره صديق ، يأتون اليه جملة ، ليضعوا له اقفاصا بعيونهم . عرفوا عنه كل شيء ، ملابسه ، وقامته ، وزوجته ، وهوايته ، وسيجارته ، وكتبه المفضلة ، واسماء لزوار الاصدقاء والاعداء ، حجم نوافذ المنزل ، والوان الستائر ، وطول الباب ، الا ذهنه المليء بالاسرار والقصائد . ويجمع الشاعر بعض الصور الصغيرة التي تحدث يوميا لكل المطاردين في الوطن ، وينتهي الى ان هذه الوسائل لن تمنع الشاعر من الكتابة ، ولا المؤمن من الصلاة ، ولا الفلاح عن ارضه ، ولا العامل عن منجمه ، ولا البسمة عن الشفاه ، ولا حب النضال عند الثائرين المناضلين :

الحب في اصابعي
والشعب في قصائدي
والجوع فينا سنة
فلتقفوا
اذا اردتم الوقوف
ولترهقوا انفسكم
اذا اردتم الارهاق
نخبركم
باننا نفتح السقف ونطير
فلتقفوا
حتى مرور فترة الحراسة
معذرة
سوف اجدد ثيابي واطير
مع جموع الطائرين

مهما فعلت السلطة والشرطة ، ومهما تفنن رجال الدرك والبوليس ، ومهما ضيق القصر على الناس الخناق ، فانهم سوف يجدون لهم مخرجا ، باختراق السدود ، وتحطيم الحصون ، وفتح الاسقف لعالية المرتفعة ، من اجل الانطلاقة الجماعية ، والحرية الجماعية ، والعمل الجماعي ، والعدل للجماعة ، والمساواة بين افراد المجتمع كله . ومحمد بنيس الشاعر الطائر مع جموع الطائرين ، الرافض مع كل لبائسين المحرومين ، الثائر مع كثير من المتمردين ، متفائل غاية التفاؤل بما سوف تحققه الجماهير . لقد خلع اردينه القديمة ، وجدد ثيابه ، ويفض عن نفسه وعن شعره غبار الماضي . انه الان في مرحلة « الكلام » الفعال ، المؤثر ، الواعي ، لفظن . وكانما كان يرجيء كلامه الفعلي الحقيقي الى ما بعد . انه في « ما قبل الكلام » غيره في « شيء عن الاضطهاد والفرح » وفي « وجه متوهج عبر امتداد لزمن » . هناك قبل اكتمال التجربة ، ونضج الادراك ، والتعمق الاجتماعي ، والالتحام الموضوعي والمباشر بالواقع الخارجي . كان شاعرا ذاتيا وجدانيا حينا ، رمزيا تجريديا حينا ، معبرا فقط عن احاسيسه وخلجات نفسه في كل الاحيان ، كما كانت فاس تحتل من قلبه وشعره ارفع مكان . لكنه مع ذلك كان يؤمن بالحرف وبالانسان . وكان يرجو لنفسه ان يمشي فوق التراب ، بيده اليمنى الحرف ، وبيسراه شجر الانسان . ومع نمو وعي الجماهير ، وحدة التناقضات الطبقية وخطورتها ، وبتردي الحكم في كثير جدا من المساوىء ، بدأ « الكلام » الصارخ ، وخرج الحرف السافر ، واخذت مخارج الكلمات والحروف تتضح ، وطفق الصوت يمشي فعلا فوق التراب لا في السحاب او في الغيوم .

واذا كنا قد رأيناه يحدد المنبع الذي تنبثق منه القيادة ،والزعامة فانا نلاحظ انه في ديوانه الثالث « وجه متوهج عبر امتداد الزمن » ١٩٧٤ لا يطلق السمات هكذا ، ولا يمعن في العمومية ، وانما يختار بالفعل نموذجا للزعيم او للمخلص ، الذي يضمن ان الجماهير سوف تلتف حوله ، وتلتقي على حبه ، وتنفذ اوامره ، بوعي وارتباط اصيلين . وكان لزاما ان يأتي هذا الثائر من لارض المغربية ، وان ينبع من صفوف الجماهير الشعبية ، وان يكون له في وجدانهم الجمعي مكان طيب . يكون هو الشعب ، والشعب هو . وقد انتهى الشاعر الى ان ملامح النضال ، والثورة ، والزعامة ، لا تكمن في شخص يمثل ما تتجسد كلها لدى عبدالكريم الخطابي . الوطن

(1) الديوان السابق ـ ص ١٤٨

المحموم . المناضل الثائر . المثال الذي ينبغي ان يحتذى . هو الذي ترسب في خلد كل طفل من اطفال المغرب . وهو الذي هـرع اليـه الفلاحـون في الريف المغربي ليقود نضالهم . لا احـد ينكـر دوره وبطوليته ، ولا احد يجهله : الاطفال في مدن القصدير . عمال المناجم . معطوبو حرب التحرير . الشهداء وابناء الشهدا ء.

لم يبق لنا في العالم الا نت
لم يبق لنا في الشـارع الا انت
فلتخجل اصوات الجبناء
وليـدرك كـل مغامـر
ان السـاحة
اكبـر مـن كف واحـد
وليدخل مـن شـاء الراحـة
وسكـون البـال
ابراج التأمين العـام
حتى يأتـي دوره
فالجنة في ارض حمـراء
والراحـة في عين عرجـاء
والنـار
لا توجـد فيها قاعات الشاي
او حافلـة التطعيـم
ضـد المسكونين الاحياء
بأمـير الريف

الكل مسكون بامير الريف « عبدالكريم الخطابي » ، فانه الوجه المتوهج دائما نارا ونورا ، ثورة وتقدما ، فعلا وايجابا ، عبر امتداد الزمن . وجه المقاومة الشعبية ، وصورة النضال الحر ضد كل القوى المستبدة . وبثورة مماثلة ، ولتكن اكثر تقدمية واستشراقا لبناء غـد جميل ، يمكن القضاء على عوامل التخلف والقهر والاستبداد والظلم . وثمد اعداد غفيرة تنتظر قدومه ، لتعانق مبادئه وتؤمن به . تتمثل هذه الجموع في : كل من جاع في السر والعلن . او وشم الجبناء رصاصا . او خاض حرب الخروج عن الصمت والصمد . او حمل النار في كفه وعاد اشتياقا الى المشنقة . او حط في يده الصحو والفرح . او من كان غده على كتفيه ، وفي صدره حمام وحلم واروقة مشرقة . او من تعلم كيف يشق القميص ويجعله لافتة . او كان واحدا ممن حضـروا طقوس الخيانة فاشتعلوا وعادوا ليحترقوا . او من كان يرتد كل صباح فيصرع قبل المساء وحيدا ، ويمنع دفنه في المقبرة . المعذب من اجل قضية وطنه . الذي يقبل على الموت طائعا بسبب « الجموع » وقضية « الجماعة » ليخلصها مما هي فيه . الباحث عن الفرد الحر في اطار مجتمع حر . الداعي الى اليقظة . الباعث حب الكفاح والوطن .

هذه هي العناصر القيادية التي تتزعم القاعدة العريضة مـن العاطلين والمشردين والفلاحين والعمال وابناء الطبقـة المتوسطة الصغيرة ، وحتى الذين اضطرتهم ظروف مجتمعهم الى الهجرة بعيدا عن اللا امن واللا عمل واللا عدل واللا ديمقراطية ! والشاعر يصور لنا حركة مجتمعه في امتدادها وتواصلها ، رابطا الماضي بالحاضر بالمسـتقبل مجسدا القوى المتصارعة في كل مرحلة . وهو وان ادان كل الذيـن لم يؤمنوا بالثورة وبحركة الجماهير ، ولئن كان قد فضح لا اخلاقيـات والاعيب المخادعين الذين فتحوا ابواب الهزيمة الاجتماعية والحضارية والانسانية ، فانه لا يتمرد على سابقيه ان كانو اقد التزموا طريـق المقاومة والنضال ايا كانت وسائلهم ومهما بلغت بهم النتائج التـي توصلوا اليها فيما بعد . وهو على عكس التيارات الجديـدة التي ترفض كلية ما سبقها متذرعة بدعاوى واسباب تبدو من وجهة نظرهـا منطقية . والامر عند محمد بنيس مختلف . فهو يحترم الرافضين على وجه الارض ، لانهم جميعا ينطلقون من منطلق واحد ويستهدفون غايـة مشتركة ، وان تباينت درجات النجاح والتوفيق ، بتباين الظـروف والملابسات والعوامل الخارجية والموضوعية المحيطة :

ابناء الارض
يمشون على اعتاب الارض
هذا حلم في الكف
وحروف تنمو في احداق العين
وترود مدار الوصل

يرى الشاعر في الرافضين محاولات مستمرة لتفتيت الجمـود والرتابة ، ولاحياء ملامح ذلك الوجه المتوهج ابدا : وجـه عبدالكريم الخطابي . وايمانه بالحركة والصيرورة والاستمرار يفضي به دائمـا الى رفض كل عوامل الثبات ، وتأييد ما من شأنه ان يدفع الى امام او يكسر حدة التوقف والتحجر . ومن ثم نراه متمردا على مألـوف الحياة اليومية العادية في شتى صورها واشكالهـا ، في محاولـة لتحطيم الضوء العالقة بالزمن الماضي ـ الحاضر ، لتجاوزه الى الزمن القادم بما ينبيء به . واحيانا ما نجده يتخذ « السـاعة » بوجودها المادي ودقاتها الرتيبة المعتادة وعقاربها الدوارة ، رمـزا ، يذكـر بواقع ، ويرهص بزمن آت ، وكشكل من اشكال عدم الاعتراف والتسليم يشعر ازاءها بنوع غريب من الاحساس . اذ يشعر برغبة عارمـة في تحطيمها ، لادراكه القوي بانها تدفع الى الاعتراف بالحاضر الـذي سوف يصبح هو الاخر ماضيا . وهو ـ في داخله ـ يستهدف تطليق ايام زمان واناس زمان ، اولئك الذين باعوا عهد الله وعهد الناس . تلك الايام كانت اوهاما ، او جيفا تتورم فـوق النخل ، حين تمت اللعبة بين العاشق والمعشوق .

اكسر ساعتي
وادور في حزني وفي فرحي
اطوف مشاهد الاطفال ترفعني
عيون الرفض نحو مساحة الموتى
وعند لوائح الاحياء
اكسر ساعتي
فتعود تحرقني عناوين
تذكرني بقامة انبياء

لكن رفض الشاعر للماضي وللحاضر الذي هو نتيجة لـه ، لا يخدره ، ولا يجعله يستكين للذة الرفض في ذاتها ، اذ سرعـان ما تتكشف له تلك الجوانب المضيئة ـ ان في الماضي او في الحاضـر المقاوم ـ التي تشكل ملامح الصحو واليقظة : تتسرها اخبارها ، تنمو اصداؤها في شجر الزيتون ، تسطع انوارها من حـب القمح ومـن اعراس المنجل ، تأتي من قلب الشرق ـ الغرب ، من ايـام الريف ، ايام عبدالكريم الخطابي ، البطل ـ الرمز ، الـذي لا يذكر اسمه الا وتذكر ثورة الريف للشعب المغربي . كذلك فانه لا تكـاد ثورة الشعب المغربي تذكر الا ويذكر اسم البطل عبدالكريم الخطابي قائـد ثورة الريف العظيمة ، وما قامت ثورة بعده الا وتمثلته ، وما كـان زعيم بعده الا وحفظ دروس نضاله . ولهذا وقفت السلطة في وجه كل من يتحدث عنه او يشير اليه او ينادي به .. لانهـا تريد ان تستبقي

الاوضاع كما هي دونما تغيير أو تبديل ، ومن هنا كان حرصها على ان تنتزع صورته من خيال الناس ، وان تصادر السنتهم حتى لا تتفوه باسمه . كل من يتساءل عنه يعدم قهرا او يتعرض للتشريد . تريد السلطة بالعنف ان تسحب الشعب منه ، و ان تسحبه من حدقة عين الشعب ، ليبقى بين الشك والحان ، مقطوع الرأس ، غريبا في غربته. بيد ان كل هذه المحاولات لا تفلح .

نخفي في معطفنا صورا ممنوعة
نرسمها سرا
في الاول نحفر في الحائط
خط العينين
وتجاعيد الجبهة
وتقاسيم الشفتين
وثقوبا بين ا للحية والاذنين
فتداهمنا قوات الامن
نتراجم بالاحجار
تتسرب اخبار عن حرب الردة والعصيان
تتسرب اخبار عن ماضي الريف

عبدالكريم الخطابي باق وسيبقى ، خالدا وسيخلد ، ثائر وسيظل ثائرا طالما بقيت الاوضاع على ما هي عليه ، وظل المجتمع ينحدر من سيء الى ا سوأ ، وسيظل ارتباط الشعب المغربي بزعيمه وقائده باقيا متجددا ، رغم كل الجهود المستميتة لاحلال صور اخرى محله ، او لمحو ذاكرة وتلهية الشعب عنه ، اذ كيف ينسى الشعب قواه الكامنة فيه !! وكيف يمحو صورة مخلصة وقائدة ؟ وكيف ينفصل عمن لم ينفصل عنه ويستند اليه ، ويعتمد عليه ؟! ان ارتباط الشعب المغربي بعبدالكريم الخطابي ارتباط تلازم ووجوب . وقد اشار الى شيء من هذا « روبرت فوز و» في (عبدالكريم امير الريف) حيث يقول : (... وحاول جندي ريفي في اللحظة الاخيرة ان يلحق بالركب ، لكن الضباط ردوه على اعقابه ، ونهضت بعض الاشباح من بين الادغال ، وانطلق اتباع عبدالكريم صوبه ، وراحوا يقبلون ركابه وثيابه ، ويرمون بانفسهم في طريقه ، واستحث عبدالكريم حصانه قدما وعيناه مرفوعتان الى العالي ..)

سلاما لمن جاءنا
تسلل بين الستائر
وبين السجائر
ليشعلنا
ليخبرنا
بان حبيبنا ـ شعبنا عبدالكريم
تظاهر امس
توهج عبر الشوارع
وحطم أمن الحواجز
سلاما
سلاما ... »

وهكذا نرى ان الديوان الثالث لشاعرنا الشاب محمد بنيس عبارة عن قصيدة واحدة ، يسميها هو القصيدة المضادة ، ويهديها الى الوطن المحموم عبدالكريم الخطابي ، ليست بالفعل الا كلمة حب صادقة في عبدالكريم ، لا لشخصه ، ولكن لما يرمز اليه ويدل عليه ، ولافعاله ومقاومته ومبادئه وارتباطه القوى بشعبه . وهي كذلك دعوة مفتوحة للشعب المغربي كله كي يكون جميعه عبدالكريم في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخه . ولعلها صرخة مدمرة موجهة ضد كل من يريد ان يمنح صورة عبدالكريم ـ الثورة ـ النضال ـ الرفض ، او يمسحها من الاذهان والعقول والقلوب والافئدة وكتب التاريخ واناجيل الثورة . والشاعر لم يستورد مناضلا من الخارج، ولم يستلهم اساليب مقاومة ةمن بيئة اخرى ، وانما كان مغربيا في تمثله القائد المخلص ، كما كان مغربيا في تصوره حركة الواقع ، وتعريته المساوىء ، واستلهامه ادوات التغيير ، ولئن كان في ديوانه الثاني صريحا الى ابعد الحدود ، مبتعدا الى حد عن خصائص الفن الشعري ، مفضلا الهدف على الوسيلة والاداة ، فانا نرى انه في ديوانه الثالث سعى الى الجمع بين الحسنيين : الغاية والوسيلة ، الشكل والمضمون ، وجهد في ان يوصل كلمته ، ويبلغ رسالته ، ويقود شعبه ، بالكلمة الشاعرة ، الصادقة ، الموحية ، وهو بالتاكيد في دواوينه القادمة سوف يحقق لفنه الكثير ، لعقيدته الكثير والكثير ، لانه يطالب الانسان العربي في المغرب الاقصى ان يظل كذلك .

لن تصمت بعد الان
ايها الانسان
حدق في وجهك قبل النوم
سترى خيلا من طين الريف
تتفجر في الساحات
في اشجار الواحات
في خارطة العالم
حدق
سترى صوت الجبناء
موصولا بالقطع الساكن بالموت
حدق
سترى عبر التاريخ
رقعا ممنوعة
او ممسوحة
حدق ساعات ان امكن
سترى اسراب الهدنة وهما
حدق
حدق
سترى في وجهك اعراسا
سترى في عينك اسيادا
سترى في كفك امواجا
حدق
فالعالم في كفك
لا يبلى
لا يبلى ... »

القاهرة